على جهة التعظيمِ لِمَا وَضَعَتْهُ والتفخيمِ لشأنِه والتهويلِ لها، إذ وقع منها التحسر والتحزن، مع أنَّ هذه الأُنثى التي وَضَعَتْها سيجعلها اللهُ وابنَها آيةً للعالمين وعِبرةً للمُعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحداً؛ أي: إنَّكِ لا تعلمين قَدْرَ هذا الموهوب، وما عَلِمَ اللهُ فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام، وتتصاغر عِنْدَها العقول، وأنَّ له شأناً عظيماً.

٨- خروج الخبر إلى معنى التوبيخ والتقريع:

هذان الغرضان مفادُهما التأنيب واللَّوم والعذل ونحو ذلك، وقد ظهرا بشكلٍ واضحٍ وجليّ في قولِهِ-تعالى-: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[فصلت:٢٢]، فهنا يُخبِرُ-سُبْحَانَهُ- أنَّ إنكارَهم هذه الصفة من صفاتِهِ من سوءِ ظَنِّهم به، وأنَّه هو الذي أهلكَهُم وَسَيُهْلِكُ مَن كانَ بطَنِّهم هذا، وهذا تقريعٌ لهم وتوبيخٌ من جهةِ اللهِ-سُبْحَانَهُ- أو من كلامِ الجُلود، أي: ما كُنتُم تَسْتَخْفُون عِنْدَ الأعمال القبيحة وارتكاب الفواحش بالحيطان والحُجُب، حذراً من شهادة الجوارح عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً.

٩- خروج الخبر إلى معنى السخرية والاستهزاء:

يدورُ هذانِ الغرضان البلاغيانِ حولَ مَا إذا كانَ في مطلوبِ الأمرِ إهانة للمخاطب، والاستهزاء هو إسماعُ الإساءة، والسخرية قد تكون في النَّفس، ومن ذلك قوله- تبارك وتعالى-: ﴿ **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾[الأعراف:٨٢، والنمل:٥٦]، وهذا جوابُ قومِ لوطٍ-عليه السلام-، ووَصْفُهُم بالتطهُّرِ طريقُ السخرية والاستهزاء؛ لأنَّ مُرَادَهم من ذلك-واللهُ أعلمُ- ليس الإخبار، إنَّما أرادوا الاستهزاء بهم، إذاً فَهُم قد عابوهم بغيرِ عيبٍ، وذَمُّوهُم بغيرِ ذنبٍ.

ويُضارِعُ المثال السابق قولُهُ-تَعالَى-: ﴿ **قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ** ﴾[هود:٨٧]، فهنا جاء الخبر في نهاية الآية الكريمة-على لسان قوم شعيب-عليه السلام- مُؤَكَّداً بحرف التَّوكِيد(**إنَّ**)، و(**لام القسم**) مع (**القصر بضمير الفصل**)، فاشتملت هذه الجملة الخبرية على أربعة مؤكِّداتٍ، ليتضمَّن هذا الخبر

الإنْشَاء- لُغةً واصطلاحاً:

النُّون والشين والهمزة، لها أصلٌ صحيحٌ، تدلُّ بمجموعها على الابتداء والخلق؛ فقولُنا: أنشأَ اللهُ الخلقَ، أي: ابتدأَ خَلْقَهُم، والإنْشَاء: الابتداء والخلقُ والابتداعُ.

أمَّا الإنشاء في منظور اصطلاحِ البلاغيينَ فيُخالِفُ المذكور؛ إذ (**هو الكلامُ الذي لا يحتملُ الصدق والكذبَ لذاتِهِ؛ لأنَّهُ ليسَ لِمَدْلُولِ لَفْظِهِ-قَبْلَ النُّطقِ بِهِ- واقعٌ خارجيٌّ يُطابِقُهُ أو لا يُطابِقُهُ**).

أقسامُ الإنْشَاء:

الإنْشَاء عِنْدَ البلاغيين على قسمين، هما:

الأوَّلُ- الإنْشَاء الطَّلَبيّ: وهو ما استدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب؛ لامتناع تحصيل الحاصل، وله أساليبُ كثيرةٌ، هي: (الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء، والتمني)، وهذه الأساليب تُعطي مَعَانٍي جديدة لقائلها، فيها دفق كبير، لذا اعتنى بها البلاغيون أكثر من أساليب القسم الثاني من أساليب الإنْشَاء غير الطلبي، على ما سيأتي.

الثاني- الإنْشَاء غيرُ الطَّلَبيّ: وهو ما لا يستدعي مطلوباً، وله أساليبُ مُتعدِّدةٌ أيضاً، هي: (صيغُ المدحِ والذَّم، والتعجب، والقسم، والرجاء، وصيغ العقود)، وهذه الأساليب قليلة الاستعمال عِنْدَ البلاغيين، بل يَكادُ تكون مهملةً عِنْدَهم تماماً؛ لندرةِ الأغراض المتعلقة بها بلاغياً، في حين-على العكس من ذلك- نجد أنَّ أساليبَ القسم الأوَّل احتلت مساحةً واسعةً المجال في مظان كتبهم؛ لما تنطوي تحتها من أسرارٍ وأغراضٍ بلاغيةٍ، يتفنَّنُ فيها قائلُها ويتوسعُ فيها أكثر فأكثر، لأجل ذلك سنقفُ-إن شاء اللهُ تعالى- على أساليب الإنْشَاء الطلبي الغنية بالمادة البلاغية، ونُعْرِضُ جانباً عن أساليبِ القسم الثاني؛ لأنَّ بعضَها داخلٌ في أغراض الخبر البلاغية، فضلاً عن أنَّها لا تُستعملُ إلَّا في مَعَانِيها التي وُضِعت لها.

أساليبُ الإنْشَاء الطلبي:

معنىً بلاغياً وهو السخرية والاستهزاء، أي: إنَّكَ لستَ بحليمٍ ولا رشيدٍ؛ بل أنت بالعكس من ذلك عِنْدَنا السَّفيهُ الغوي، أقمأً اللهُ أفواهَهَم.

١٠- خروج الخبر إلى معنى الوعيد والتهديد:

الوعيد هو التهديد بما سيكون، وذلك إذا كان الْمُخْبِرُ غيرَ راضٍ عن الفعل، فمن ذلك ما جاء في قوله-تَعَالَى-: ﴿ **وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[البقرة:٧٤]، فهذه الآية الكريمة تكرَّرت في ستَّة مواضع[1]، والمراد من الإخبار بجميعها التهديد والوعيد، مع التهويل والتخويف، فضلاً عن الذلة والمهانة للكافرين المعاندين، والإعلام بأنَّ الله-سُبْحَانَهُ- لا يتركُ أمرَهُم سُدىً، ولا يتركُ عقوبَتَهُم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع.

ومن أشدِّ الوعيد والتهديد ما جاء في قوله-تَعَالَى-: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾[النساء:٩٣]، فهذا الخبر جاء متضمناً لأشدِّ وعيدٍ، ومجملاً في أربعة تهديدات، كلّها تقشعر منها جلودُ الذين آمنوا؛ فالخطاب فيها مشعرٌ بشدَّة الأمرِ وعظمتِهِ وخطورتِهِ؛ إذ جمعَ اللهُ له فيها بينَ كونِ جهنَّم جزاءً له، أي: يستحقها بسبب هذا الذنب، وبين كونه خالداً فيها، وبين غضب الله ولعنته له وإعداده له عذاباً عظيماً، وليس وراءَ هذا التشديد تشديدٌ، ولا مثل هذا الوعيد وعيدٌ، لمن فكَّرَ وقدَّرَ واعتبر، وما أحوج مجتمعاتنا اليوم لهذا؛ فقد كَثُرَ فيها الهرجُ والمرجُ والتشريدُ والفوضى بسبب انتشار القتل.

ونختم هذا المطلب والغرض بقوله-تَعَالَى-: ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ** ﴾[الرحمن:٣١]، فقد وَجَّهَ أهلُ اللغة معنى الفراغ من الله-سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- أنَّه على معنى القصد، أي: سَنَقْصُدُ لكم ولحسابكم؛ لأنَّ اللهَ-تعالى- لا يَشْغُلُهُ شُغْلٌ، والمُهِمُّ من هذا الخبر أنَّه وعيدٌ شديدٌ من الله-سُبْحَانَهُ- للجِنِّ والإنس، على حَدِّ قول القائل لمن يريد تهديده: إذنْ أَتَفَرَّغُ لك، أي: أقصُدُ قصدك.

المَطلَبُ الثَّانِي- الإنْشَاءُ:

[1] في سورة: البقرة:٧٤و٨٥و١٤٠و١٤٤و١٤٩، وآل عمران:٩٩.

الأوَّل- الأمرُ:

الأمرُ عِنْدَ البلاغيينَ (**طلبُ حُصُولِ الفعلِ على جهةِ الاستعلاءِ والتَّكليفِ من الأعلى رتبةً إلى الأدنى**)، وله أربعُ صيغٍ مشهورةٍ، هي: (**فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر**).

أغراض الأمر البلاغية:

للأمر أغراضٌ بلاغيةٌ كثيرةٌ، منها:

١ـ خروجُ الأمرِ إلى معنى الخبر:

مرَّ بنا أنَّ الخبرَ يَخرُجُ إلى أغراضٍ بلاغيةٍ كان من أبرزِها الأمرُ، وهنا يُطالِعُنا العكسُ من ذلك، إذ نجدُ أنَّ الأمرَ هو الذي يفيدُ الخبرَ؛ لأغراضٍ بلاغيةٍ كثيرةٍ، منها ما جاء خطاباً للمنافقين في قوله-تعالى-: ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[التوبة:٨٢]، فههنا وردَ أمران في سياقٍ واحدٍ ﴿**فَلْيَضْحَكُوا...وَلْيَبْكُوا**﴾، ومعناهُما الخبرُ؛ والمعنى: فَسَيَضْحَكُ هؤلاء الذين تخلَّفوا عن رسولِ اللهِ-ﷺ- قليلاً بالنسبة للبُكاء في الآخرة، ويبكون كثيراً، وإنَّما جيء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أنَّ ذلك أمرٌ محتومٌ لا يكون غيره، والتقدير: ضحكاً قليلاً وبكاءً كثيراً، أو زماناً قليلاً وزماناً كثيراً، بدليل ما ورد عن أبي هريرة-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّ النَّبِيّ-ﷺ- قال: «لو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيتُمْ كَثِيراً»[1].

ومن قبس خروج الأمر إلى معنى الخبر ما نجده في سورةِ(مريم)، حينما أمرَ اللهُ-تعالى- رسولَهُ-ﷺ- أن يجيبَ على المفتخرين بحظوظهم الدُّنيوية، والكفار القائلين للمؤمنين: ﴿**أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً**-٧٣﴾، بقوله-تعالى-: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً**-٧٥﴾، أي: مَن كان في الكفر والجهل والغفلة عن عواقب الأمور، وهذا شرطٌ جاء جوابُه على صيغةٍ من صيغ فعل الأمر﴿**فَلْيَمْدُدْ**﴾، أي: في الدنيا يستدرجه استدراجاً، وهذا وإن كان على صيغةِ الأمر فالمرادُ به الخبر؛ وإنَّما خَرَجَ مخرجَ الأمرِ لبيان الإمهال منه-سُبْحَانَهُ- للعصاة، وأنَّ ذلك كائنٌ لا محالةَ؛ لينقطع معاذير أهل الضلال، ويُقال لهم يومَ القيامةِ: ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ**﴾[فاطر:٣٧].

٢- خروج الأمر إلى معنى الإباحة:

[1] صحيح البُخَارِيّ(٦١٢٠):٢٣٧٩/٥.

لا يرادُ بالإباحة طلبُ الفعلِ على وجه الاستعلاء؛ بل يُستعملُ في مقامٍ يتَوَهَّمُ فيه السامعُ حَظرَ شيءٍ عليه، فيكون الأمرُ إيذاناً له بالفعل، ولا حرجَ عليه في الترك، وإظهارُ الرضا بوقوعِ الداخل تحته كأنَّه مطلوبٌ، واستعمالُ الأمر في هذا المعنى كثيرٌ في آيِ القرآن الكريم، من ذلك ما نجده في بداية سورة(المائدة)؛ فقد ذكرَ -سُبْحَانَهُ- النهيَ عن أن يحلُّوا شعائرَ الله، عقب ذكره تحريم صيد المُحرم، ثم بعد ذلك أمرهم قائلاً: ﴿**وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا**-٢﴾، ومجيءُ الأمرِ بعدَ التحريمِ يدُلُّ على الحثِّ عليه والإباحة، وكأنَّه أمرٌ مطلوبٌ مرغوبٌ فيه، أباحَ لهم الصيد بعد أن حَظرَهُ عليهم لزوال السبب الذي حُرِّمَ لأجله وهو الإحرام، ومثله قوله-تعالى-:﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾[الجمعة:١٠]؛ لأنَّه ليس بواجبٍ على المُحرم إذا حَلَّ من إحرامِهِ أن يصطادَ.

ومن أمثلةِ غرض الإباحة ما جاءَ في قوله-ﷻ-: ﴿**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ**﴾[التوبة:٢]، وذلك بعد الإخبار عن براءة الله ورسوله من المشركين بسبب ما وقع من الكفار من النقض منهم، وقوله تعالى:﴿**فَسِيحُوا**﴾ أمرُ إباحةٍ منه-سُبْحَانَهُ- بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة، ومعنى الآية أنَّ اللهَ-سُبْحَانَهُ- بعد أن أَذِنَ بالنبذ إلى المشركين بعهدهم أباحَ للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون، وليس المراد من الأمر بالسياحة تكليفهم بها؛ بل الإباحة بحصول الأمان وزوال الخوف، أي: سيحوا في الأرض وأنتم آمنون من القتل والقتال، فهو أمرٌ مُباحٌ لكم.

٣- خروج الأمر إلى معنى التسوية:

المقصود بخروج الأمر إلى معنى التَّسوية أن يكونَ الأمرُ في مقامِ تَوَهُّم رُجحان أحدِ الأمرين على الآخر، من ذلك قوله-تعالى- خطاباً للكفار-: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[الملك:١٣]، فهنا ورد أمران بينهما حرفُ عطف(أو) يُفيدُ التسوية في ظاهره، والمعنى: إنْ أخفيتم كلامَكم أو جهرتم به في أمر رسول الله-ﷺ- فكلُّ ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية، أي: إنَّ الأمرين سيانٌ عِندَه-سُبْحَانَهُ-؛ وذلك دَفْعاً لما قد يُتوهَّم مِن أنَّ الإسرارَ أو الجهرَ نافعٌ للكفار، فضلاً عن ذلك أنَّها تحمل في طيَّاتها معنى الاحتقار والازدراء، وقلَّة المبالاة بعقول هؤلاء الكفار.

٤- خروج الأمر إلى معنى الدُّعاء:

إذا صَدَرَ الأمرُ من مرتبةٍ دُنيا إلى مرتبةٍ عُليا فهو لا يُعطي معنى الاستعلاء والإلزام حينئذٍ؛ بل يُفيدُ معنىً آخر يُفهَمُ من سياق الكلام وقرائن الأحوال، فيفيد-مثلاً- التضرع والخضوع والاستغاثة وطلب العون، وما إلى ذلك من مَعَاني الدُّعاء، وقد حوى القرآن الكريم كثيراً من أمثلة هذا النوع؛ لأنَّ الدعاء هو العبادة، فمن ذلك ما نجده في قوله-تبارك وتعالى-: ﴿ **رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ** ﴾ [آل عمران:١٩٣-١٩٤]، فصيغة الأمر تكررت في هاتين الآيتين؛ لأجل تكفير الذنوب ثمَّ بالتوفي مع الأبرار، وطلب الوعد الموعود به، وكلُّ ذلك يُراد به التضرع إلى الله-تعالى- والتوجه إليه والدُّعَاء له، لا المعنى الحقيقي للأمر؛ لأنَّ اللهَ-جلَّ في عُلاه- لا يأمُرُه أحدٌ، لكنَّ التعبير جاء بهذه الصيغة إظهاراً لكمال الخضوع له-سُبْحَانَهُ-، مع بيان شِدَّةِ الرغبة في تحقيق تلك الأفعال، حتى تصيرَ وكأنَّها أُمورٌ مطلُوبةٌ من الله-عزَّ اسمُه-.

ومما اندرج في سلك غرض الدُّعَاء أيضاً قوله-تعالى-على لسان نبيه موسى-عليه السلام-: ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا** ﴾[طه:٢٥-٣٥]، ففي هذه الآيات الكريمات يخبرنا الله-عَزَّ وَجَلَّ- أنَّ نبيَّه موسى-عليه السلام- طلب منه ستة مطالب، تفيدُ كلُّها معنى الدُّعاء؛ لأنَّها صدرت من رُتبةٍ دُنيا إلى رُتبةٍ عُليا، ولأنَّ المقامَ مقامُ خُضوعٍ وتضرُّعٍ، أي: يا ربِّ: أحكم به قوتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة... وفيهِ دليلٌ على أنَّ الحقَّ-جلَّ وعلا- يُحبُّ العبدَ اللحوح في الدعاء.